العرب
السبت 2021/02/27
السنة 43 العدد 11984

«كازما» رواية عن تونس من زاوية أخرى

كل القرى المنسية هي ماكوندو ماركيز وإن تعددت أشكالها

رجل يواجه القسوة بالقسوة (لوحة للفنان سنان حسين)

قدم الكاتب التونسي صلاح البرقاوي مساء الأربعاء 24 فبراير الجاري روايته "كازما" في مركز الفنون الركحية والدرامية بمحافظة سليانة، حيث انتظم لقاء جمع الكاتب مع القراء، دار خلاله نقاش حول أهم قضايا الرواية التي تناولت ظاهرة معقدة وخطيرة، هي ظاهرة الإرهاب في تونس.

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

"كازما" على الرغم من غرابة العنوان مقارنة بالبدايات الهادئة لهذه الرواية، فإنه ربما العنوان الأمثل لرواية الكاتب صلاح البرقاوي، وهو ما سنثبته في مقاربة لأحداث متشعبة تذهب بنا إلى تفاصيل تاريخية مهمشة ومنسية.

تبدأ الرواية من مشهد وداع بين توفيق وأبيه، ورحلة العودة من مسقط رأيه دشرة الأغوار في جبال محافظة سليانة، إلى تونس العاصمة حيث يعمل توفيق صحافيا، ولكنه في طريق العودة يصادف فرقة من طلائع قوات الأمن ويخمن أنها متجهة للقضاء على صديق طفولته صالح المزاري، بطل الرواية الذي نغوص معه في رحلة تمزج الواقع الاجتماعي بالتاريخي وتسبر أعماق العلاقات والخلل النفسي وغيرهما من تفاصيل تقود شابا محبّا لأن يصبح من اخطر العناصر المطلوبة لدى الدولة.

الذكريات المؤلمة

تتوازى في الرواية، الصادرة عن دار مسكلياني، حكايتا توفيق وصالح المزاري، بينما الأول كان الراوي والثاني البطل الذي يقتفي الراوي توفيق آثاره، من مكان إلى آخر ومن حكاية إلى أخرى ومن محاضر البوليس وحكايات الأهالي.

تعود الذكريات بتوفيق إلى زمن الطفولة القاسية، زمن المدرسة التي تحيط بها الوديان ويشتد فيها البرد، وقد اضطروا في أحيان كثيرة إلى المبيت داخلها لانقطاع الطرق وتعذر العودة إلى منازلهم بسبب الفيضانات. المدرسة التي يحكي عنها توفيق ليست وردية، بل فيها اعتداء المعلم، مثلما حدث مع صالح الذي تبول على نفسه وكان عرضة للسخرية من المعلم والتلاميذ، وفيها التلاميذ الآخرون المشاكسون، الذين ضايقوا صالح وصديقه توفيق لولا تدخل المدير. فيها الطريق المليء بالمخاطر وقد أصيب فيه صالح حين هاجمه خنزير بري، لكن رغم كل ذلك كانت فيها النشأة.

> حقبة هامة ومنسية من تاريخ تونس بكل تحولاته يسردها صلاح البرقاوي بشكل متواز بين بطلين مختلفين

ينقطع صالح عن الدراسة مرتين جراء السخرية وكرهه لزملائه رغم نتائجه الجيدة لكن تقهقرت لأسباب، ويستمر توفيق في الدراسة إلى أن ينتقل إلى المرحلة الثانوية فيفترقان، ثم يواصل التعلم بالمراحل العليا في الجامعة، وتفتر العلاقة تدريجيا بين توفيق وصالح، لكن توفيق الذي تدرج في عمله من صحافي إلى رئيس تحرير يبقى حاملا شعورا بالذنب لأنه كان بإمكانه إنقاذ صديقه غير أنه لم يمنع عن صالح ما حصل له، فيحاول الكتابة عنه كنوع من التكفير عن الذنب.

تقودنا الحكاية مع ذكريات توفيق إلى حكاية صالح الذي غادر الدشرة ليعمل في حظائر البناء ويحقق حلمه ببناء منزل في القرية أسفل الدشرة، ويفتح من خلالها الكاتب واقعا تونسيا منسيا ومهمشا، واقع دشرة تؤمن ببركات وليها الصالح "سيدي مزار"، الذي كان يعتني بمقامه أبوصالح ومن ثم صالح قبل أن يهجره، وإن كان هذا الإيمان فيه نوع من السذاجة فإن معدنه هو المحبة، حيث كانت تذبح القرابين وتوزع لحومها على الناس وكان الزوار يأتون من كل حدب وصوب للتبرك بالولي الصالح من خلال طقوس لا كمد ولا قنوط فيها.

كما ينقد الواقع الاجتماعي والسياسي القاهر من خلال بعض الشخصيات حين يعود إلى ما قبل الاستقلال ويتحدث عن العمال الذين يعملون عند المعمر المتغطرس الذي كان يهينهم، أو في ما بعد الاستقلال عن صابر الشاب المتخرج من الجامعة ولكنه يعمل في حظيرة بناء. وينقد الواقع السياسي من خلال شخصية الأستاذ الذي قال لصالح حين تعرف عليه في السجن "قد يسجنونك يا ولدي من أجل بيضة لكنهم لن يجدوا حرجا في مبايعة سارق البلاد ملكا"، أو من خلال أزمة مرت بجريدة توفيق حتى أوشكت على الإغلاق لأنها تقدم آراء سياسية، لولا تغيير منهجها واسمها.

وفي تتابع الحكاية يتراجع حال مقام سيدي مزار، إلى أن يهجره الزوار، كما يهجر الدشرة أغلب ناسها للسكن في القرية أسفل السفح، لكن أم صالح تتشبث بمنزلها وترفض بشكل قاطع أن تسكن مع صالح في منزله الذي بناه بعرقه ومجهود سنوات، فيضطر إلى بيعه والعودة إليها والاكتفاء برعي قطيع أغنام سيُسلب منه لاحقا.

الأجواء هادئة تقريبا، ولكن الروائي يمرر حالة البؤس والفقر والحاجة التي عاشها التونسيون في أواخر القرن العشرين، من خلال سرده تفاصيل الدشرة والقرية وينقد السلطة بذكاء من خلال مثال العمدة الذي استمر نفوذه حتى بعد الثورة.

لكن ما الذي حوّل صالح من شخص محبّ لأمه وللحياة إلى مجرم وإرهابي يرتكب أبشع الجرائم؟

الإجابة نكتشفها من خلال علاقات الشخصيات بعضها ببعض، فصالح ومنذ طفولته كان أبوه شبه غائب، لم يكن له رأي ولم يزره في المدرسة، ولم يكن يهتم به البتة، كان غارقا في صمته أغلب الوقت، شخصية سلبية، أما أمه فهي التي يقدسها، والتي غير لأجلها حياته والتي كانت بطريقة أو بأخرى سببا في مصيره نظرا إلى عقدة الذنب التي كانت تجمعه بها، والتي جعلته يلازمها ويطيعها حتى في مسألة الزواج بابنة خالته، والأخيرة سلبته بتآمر مع أمها وأبيها ماله، ثم لفظته، نسيه توفيق صديق الطفولة، ولا علاقة تجمعه بأخيه الذي يكبره بعشرين سنة، فيجد نفسه وحيدا مقيدا إلى أمه بحبل سريّ خفي يخنقه في النهاية.

التحول الكبير الذي طرأ على شخصية صالح كان بدخوله السجن بسبب محاولته الاعتداء على ابنة خالته، يصف الروائي ببراعة مشهد صالح البريء كيف "وقف أمام المحكمة كتمثال من طين تمتد الشروخ في جوفه عميقا وكل شيء في ذهنه غائم" ويحاكم بخمس سنوات.

وفي السجن يتغير تماما بمعرفته لسيف الدين العدواني، وهو أحد المتهمين في الأحداث الإرهابية التي وقعت في تونس حقيقة سنة 2006 والمعروفة بـ"قضية سليمان"، وتتغير حياته جذريا.

التحول الخطير

تتغير حياة صالح إثر خروجه من السجن ومحاولته الانتقام من خالته الماكرة بإطلاق النار عليها وهروبه إلى سيف الدين الذي يحمله إلى دروس أحد الشيوخ، ومن ثم يرسله إلى كتيبة في جبال الشعانبي وسط غرب تونس.

الإحالات على الواقع كثيرة جدا في الرواية، حتى الأحداث، عدا بعض التسميات، هي في أغلبها حقيقية ووقعت بالفعل، مثل الأحداث الإرهابية التي هزت جبل الشعانبي، والتي راح ضحيتها جنود في شهر رمضان، أو استحضار أسماء الفنانين وأغانيهم الحقيقية مثل الفنان التونسي منذر الجبابلي، أو الفنانة المصرية فاتن حمامة.

توهمنا الرواية بدقة عالية بالواقع، من خلال التحامها بالحقيقة في الأماكن والأحداث، لكنها تغوص بنا من خلال الشخصيات الخيالية لتفكيك الظواهر، وأهمها الإرهاب، وإن كان الروائي يفكك معها مرحلة تاريخية كاملة من أواخر حكم الحبيب بورقيبة إلى زين العابدين بن علي ومن ثم الثورة التي جاءت بالإخوان المسلمين إلى الحكم وعن تواطئهم مع الإرهاب.

يجد صالح نفسه بعد الدروس في الجهاد متنقلا من كازما أي مخبأ، إلى كازما أخرى في جبل الشعانبي، ويثبت وحشيته في القتل في مشهد أبدع البرقاوي في تجسيده من خلال ذبح صالح للجنود في كمين نصب لهم.

ويكشف الروائي أيضا أن الإرهاب في الجبال متصل بشبكة معقدة في الإدارات وبالناس الذين يحسون بالقهر، فيمدونهم بالمعلومات، وأحيانا بالصبايا للنكاح، وأحيانا بأطفالهم لتعلم تعاليم الدين.

يعود البرقاوي إلى واقعة حدثت فعلا يقول فيها أحد القياديين الإخوانيين لداعية متطرف مصري "نحتاج أبناءهم"، وهي العقيدة السارية في الكتيبة التي يقودها أبومصعب الذي لقب صالح بأبي أيوب، وكان الأخير لسذاجته منبهرا باسمه الجديد وبالقائد، إلى أن اكتشف أنه لوطي. واكتشف الكذب والوهم الذي عاشه لسنتين في الجبال بدعوى القتال، قتال خاضه بوحشية لأسباب شخصية، ضد خالته وزوجها وابنتهما الذين سلبوه ماله، ضد الريس في غرفة السجن الذي حاول اغتصابه، ضد الحكم الجائر عليه بالسجن دون تخفيف، وضد احتقار أقرانه في المدرسة، وضد أبيه السلبي، وضد المعمر الذي يهين عماله، والعمدة الذي سخر منه.

ربما لم يخف توفيق تذبذبه بين التعاطف مع صالح والإحساس بالذنب ناحيته، وبين إدانة ما فعله من جرائم، والتي انتهت بمقتله حذو أمه بتواطؤ من أخيه وصديقه.

وهو ما نفاه البرقاوي في حوار له قائلا "نحن لا نكتب إلا أنفسنا، وإذا أحس البعض أن ثمة نوعا من التعاطف مع البطل، فهو تعاطف مع الإنسان، وليس مع الشخص الإرهابي تحديدا".

تضعنا الرواية أمام تساؤل، هل الإرهابي فعلا ضحية لمجتمعه، أم هو ضحية لذاته بالدرجة الأولى؟ ولئن كانت الرواية تسرد كلها من خلال الراوي العليم توفيق، فكم كنا نرجو أن نسمع صوت صالح نفسه يحكي من منظوره هو.

«منبوذون».. واقع يعصف بأنشودة حب عائلي

نواكشوط – أصدر الروائي الموريتاني باللغة الفرنسية امبارك ولد بيروك كتابا جديدا بعنوان "منبوذون"، يتحدث فيه عن مأساة حديثة ويضفي عليها بُعدا أسطوريا.

وتتابع الرواية حياة سجين كتب من داخل زنزانته إلى حبيبته ليكشف لها عن قصته دون كذب ولا مجانبة.

جاء هذا السجين اليتيم المنحدر من البادية إلى المدينة حيث أرسله أخوه لمتابعة دراسته وحيث التقى من ستكون في قابل الأيام زوجته. وأثمر الزواج ولدين، لكن الضرورة والحاجة أجبرت الوالد على الذهاب إلى شمال البلاد كعامل يدوي.

وفي هذه الأثناء، لم تتحمل الزوجة الجميلة الفاقة التي تعيش فيها وانتهى بها الأمر إلى إفساد عش الزوجية، وغادرت المدينة بعدما عهدت بالابن الأكبر إلى صديقتها وجارتها.

ومن خلال الرواية، يغوص بيروك بالقارئ داخل عالم المنبوذين، متناولا تارة صوت الوالد وتارة أخرى صوت الابن: حيث يثير الأول بحنين، في تعويذة طويلة وشاعرية، شبابه الذي قضاه في الصحراء وأيام السعادة الغابرة مع حبيبته. ثم يكشف تدريجيا عن الطريقة التي وصل بها الوضع إلى هذه الحال. أما الثاني، فيحكي بكلمات الطفولة حياته اليومية في حي شعبي بعيد عن حياة البادية والألم الذي يسببه البعد عن الوالدين.

من خلال الحكايتين، ترتسم الخطوط المُمَيزَة لمختلف الشخصيات وتَبرُزُ الرواية كلوحة خفية لمجتمع في قلب التحولات وأنشودة حب عائلي يائس وعاطفي.

كما يتميز "منبوذون" بقوة الكلمات وبهجة الأسلوب لتعطيا أغنية حب لموريتانيا كبلد تتجاذبه تناقضات القرن الحادي والعشرين بين العولمة والتقاليد وبين الإرث القديم للصحراء وألعاب الفيديو في الأحياء الشعبية وبين النزاعات الاجتماعية والعواطف الخاصة وبين أنانية البعض وطيبة الآخرين وبين الظلم والإنسانية.

وبغض النظر عن القصة المأساوية والبسيطة كالحادث، هناك تلك القدرة الرائعة على الحب، والحياة التي تَهُب كالرياح العاتية الآتية من المحيط لتغزو الرمال. فبعض الشخصيات العديدة مفعمة بتلك الإنسانية التي تنبعث في كل يوم، وذلك الإنصات وحب الآخر وواجب التضامن، وهي قيم تسمح للإنسان بالصمود في وجه عاديات الزمن وفي وجه الشر والفقر والسوء.

«كقطة تعبر الطريق» تروي دمار الحرب في سوريا

القاهرة – رواية "كقطة تعبر الطريق" للكاتب حاتم حافظ هي الأولى لكاتب مصري حول أزمة اللاجئين السوريين.

تعالج الرواية، الصادرة حديثا عن الدار المصرية اللبنانية، موضوعا شائكا حول تجربة العيش في المنافي بعد أن اضطرت عائلات سورية بأكملها إلى الهجرة عقب الأزمة السياسية التي تعيشها بلادهم منذ العام 2011.

والرواية مغامرة سردية، اختار الكاتب تقسيمها إلى عنصرين. وفي قسمها الأول الذي جاء بعنوان "امرأة غاضبة.. رجل غاضب" يتناوب السرد بين راويين: عالية وميشيل صديقها الفرنسي، فنرى العالم من نظرتين؛ نظرة الشرق إلى الغرب ونظرة الغرب إلى الشرق، لكن لا الشرق صار شرقا ولا الغرب كان هو نفسه، فكلا النظرتين يشوبهما خلل ونمطية وهو ما تحاول تعريته الرواية.

> الرواية لا تتخذ موقفا ممّا جرى أو يجري سياسيًا لأن طموحها قراءة انعكاس الأحداث على الأشخاص العاديين

وفي قسمها الثاني بعنوان "قطط برية"، تعتمد الرواية على صوتين رئيسيين في السرد؛ الأول لعالية، المرأة السورية التي تهرب بطفلتها بعد اندلاع الحرب الأهلية السورية إلى سويسرا، حيث نالت فرصة اللجوء بزعم الخوف من القتل بسبب جريمة شرف، ثم تنتقل منها للعمل في باريس كمترجمة في إحدى دور النشر التي تدفعها الحرب إلى الاهتمام بالأدب العربي، وتكلف عالية بترجمة رواية تكتشف عبر تطور الأحداث خلال الترجمة أن كل الأماكن التي تدور فيها أحداث الرواية داخل سوريا لم تعد موجودة بفعل الحرب.

أما الصوت الثاني فهو لميشيل الفنان الفرنسي الذي تعرفت عليه عالية لحظة وصولها إلى سويسرا، ووقع في غرامها، وهو رجل كان يعيش أزمة وجودية دفعته إلى التساؤل عن قيمة ما يقدمه كفنان في سياق التسليع.

ومن خلال تطور العلاقة بينهما يمكن للقارئ التعرف على شخصيات أخرى تعيش مختلف أنواع الاغتراب، تلعب أدوارا فاعلة في السرد وتكشف عن جمالها الآخاذ قفزا على فكرة الانتماء لهوية جغرافية أو لثقافة ما.

مآسي المنفيين والهاربين (لوحة للفنان إسماعيل الرفاعي)